الفصل الخامس
٥ - طرائف من أدب الرحلة والسفر

● وكما جاءت فصول كتاب أديبنا الحجازى الشيخ محسن باروم ناطقة بالصدق والأمانة فى الشهادة على الظروف المجتمعية التى عاشها الفتى اليافع طالبًا للعلم فى مدرسة الفلاح بمكة المكرمة وطالبًا جامعيًّا متيمًا بالعلم والمعرفة وضروب الآداب والحكمة إبّانَ إقامته فى القاهرة، اشتملت تلك الفصول أيضًا على صورة بديعة من أدب الرحلة والسفر، خلال الإقامة لطلب العلم فى القاهرة أو الجولات التفتيشية والمتابعة الإدارية من خلال العمل فى التفتيش أو التوجيه التربوى أو العمل الإدارى والانتقال إلى مختلف أنحاء المملكة العربية السعودية، مروراً بحواضر المملكة الفتية غربًا وشرقا وشمالاً وجنوبًا.

- ولعل رحلة أديبنا فى طلب العلم فى القاهرة كانت أخصب الفترات تأثيراً فى وجدانه وعقله ونظرته إلى الكون والحياة، ومن بعدُ جاءت الرحلة إلى أوربا للإشراف على البعثات العلمية فى المدن الأوربية والإقامة فى جنيف التى وفرت له اللقاء المباشر مع الحضارة الأوربية والتعاطى مع مؤسساتها العلمية والدولية وبخاصة مكتب التربية الدولى فى جنيف.

● وإنى لمختار ثلاثة مواقف طريفة وقعت لشيخنا ووصفها ببراعة المثقب فى بيان قشيب، الأولى: حدثت فى عُرض البحر الأحمر فى أول سفر له خارج البلاد الحجازية، والثانية: وقعت فى القاهرة فى شارع عبد العزيز، وثالث المواقف أثناء سفره من الرياض إلى الأفلاج بلاد ليلى العامرية وقيس بن الملوح.

- والمختارات الثلاثة تعكس المقدرة الأدبية لأستاذنا فى فن النثر الأدبى وأدب الوصف، وتنقلك من حيثُ لا تدرى إلى عمق الحدث ببُعديه الزمانى والمكانى معًا، وهى لوضوح عنصر الحكاية تصلح عملاً فنيًا تمثيليًا مُذاعًا ومرئيًا أيضًا.

● لقد كانت الموافقة على ابتعاث فتانا الحجازى مع رفاقه المتخرجين فى مدارس الفلاح بمكة المكرمة أسوةً بالطلاب المتخرجين فى مدرسة تحضير البعثات والمعهد العلمى السعودى بمكة المكرمة حُلمًا أخضر يُراوده، حتى جاءت الموافقة من موحد الجزيرة العربية ومؤسس المملكة الفتية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فى نهاية عام (١٣٦٤ هـ)، ففرح لذلك فتانا الواعد أشد الفرح وحزم مع رفاقه أمتعتهم وهم - كما يقول - : «إبراهيم زاهد، وعبد الله المنيعى، ومحمد على جستنية ... وودعوا أهاليهم فرحين لا تكاد الدنيا تسعهم من الفرح، حيث استقلوا سيارة البريد ذات الصندوق الخشبى إلى جدة، ومنها امتطوا ظهر الباخرة (جهانكير) إحدى بواخر شركة الملاحة الهندية وقد أفرغت حمولتها من حجاج شبه القارة الهندية فى ميناء جدة وأخذت طريقها إلى ميناء السويس ومنه إلى أوربا، وما إن حللنا على ظهر تلك الباخرة العملاقة ومخرت بنا عُباب البحر، وقضينا الليل على ظهرها وطلع الفجر فجر اليوم التالى، إلا وانطلقت صفارات تدوى فى أنحاء السفينة وعرض البحر، فشاهدنا بحارتها وقد لبسوا سترات الإنقاذ، ودلّوا قوارب النجاة التى كانت معلقة على جانبى السفينة، وأخذنا نتفرج عليهم مبهوري الأنفاس، على وجوهنا علامات الاستفهام والتعجب، فإذا بعض كبار البحارة قد أقبلوا علينا وألبسونا السُّترة نفسها، ولم يَدم الحال أكثر من ساعة، وهناك قيل لنا إن بعض طائرات الأعداء، قد تتسلسل فى الأجواء، وتلقى بحمولتها من القذائف والقنابل، ولهذا فإن علينا أخذ الاحتياطات اللازمة لوقوع مثل هذه الحوادث التى تحدث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية»[1].

● وبعدما عشنا مع شيخنا توابع الحرب الثانية فى عرض البحر وأخطارها فى الموقف الأول، يصحبنا فى الموقف الثانى إلى نزهة فى شوارع القاهرة التى كان تواقًا لزيارة معالمها والتعرف على مغانيها وآثارها، وقد استغل صاحباه، طيبته وحداثة عهده بقاهرة المعز، وغفلته عن مدلولات معانى بعض العبارات المصرية

(١) السابق ص ٣٦.

السُّوقية التى تزعج بعض العامة فيها وأوقعاه فى فخ طريف كاد يُنزل به الضُّر والأذى. يقول أديبنا فى وصف الموقف وما حدث له فيه: « ... وكنت أتوق الزيارة القاهرة التاريخية والأثرية، وتصادف أن صحبنى الزميل أسعد جمجوم وصنوه حسن نصيف، لقضاء تلك الليلة معهما فكانت فرصة لهما للتندر علىَّ كعادتهما فى تدبير (مقالب) لزملائهما الطلاب الجدد وخصوصاً أننا لا نعرف شيئا عن عادات أهل القاهرة وتقاليدهم الإجتماعية، إذْ طلب أثناء سيرنا فى أحد شوارع القاهرة الكبرى (شارع عبد العزيز) أن أستدعي سائق (حنطور) باسم (أبو لبن) وفعلت ذلك دون معرفة بما تعنيه هذه العبارة ولاحظت على الفور أن سائق (الحنطور) قد تمعر وجهه وجحظت عيناه ثم سحب سوطه ورفعه فى الهواء وكاد يَهوى به علىّ، فما كان من الأخوين إلا أنْ جَذبانى بعيداً خشيةَ أن يقع السوط علىّ، وهما يقهقهان ويضحكان وحينئذ أدركت أننى كنت ضحية (مقلب) الأخوين، أمد الله فى عمرهما »[1].

● أما الموقف الثالث من أدب الرحلة والسفر فقد وقع لأديبنا فى إحدى زياراته التوجيهية لمدارس نجد فى الطريق إلى الأفلاج مع بداية العام الدراسى الثالث والسبعين بعد المائة الثالثة عشرة من الهجرة النبوية الشريفة (١٣٧٣ هـ) أوائل الخمسينيات الميلادية، وفى هذا الموقف يصف المعاناة التى يكابدها المسافر آنذاك فى التنقل فى أرجاء المملكة الواعدة والأخطار التى تتهدد المسافرين لوعورة الطرق وعدم وجود لوحات إرشادية توضح اتجاهات الطرق، وما يقع على جوانبه من القرى و المدن فضلاً عن تخلف وسائل النقل ذاتها مما كان يجعل رحلة السفر والتنقل محفوفة بالأخطار والأهوال الجسام، على خلاف الوضع الحالى من التقدم والازدهار فى المملكة المزدهرة والتى تمتلك الآن أفضل شبكة للطرق البرية فى العالم وقد عاينت ذلك رأيَ العيان.

– ولندع أديبنا يصف لنا رحلته إلى الأفلاج من نجد بعدما أعد العدة من

---

(١) السابق ص ٣٧.

وسيلة الانتقال بالسيارة (العراقى) كما كانوا يسمونها آنذاك – والمواد الغذائية المعلبة وقرب الماء الجلدية المملوءة بالماء العذب والعباءة الثقيلة (بيدى) وهى كما يصفها: «عباءة منسوج باطنها من خيوط الصوف الخشن الخالص ومكسوة بجلود الماعز أو الخرفان المحتفظة بأشعارها وأوبارها مما يجعل العباءة ثقيلة يكاد الإنسان ينوء بحملها لثقل وزنها»[1].

– يقول الشيخ فى وَصف رحلته التوجيهية من الرياض إلى الأفلاج: «... ثم اتجه ركبنا إلى الأفلاج التى تبعد مئات الكيلو مترات من حوطة بنى تميم، وحين قارب الوقت راد الضحى توقف السائق وتبادل الحديث مع مرافقنا النجدى الذى أحضره معه الزميل العزيز الأستاذ ناصر المنقور ليكون دليلا لنا فى التعرف على معالم الطريق، وعندئذ أوقف السائق سيارته وترجلنا منها وأخذنا نجيل الطرف يمنة ويسرة وإلى الأمام والخلف فلا نجد إلا صحراء تمتد أطرافها إلى خطوط اللانهاية، واتجهنا بأبصارنا إلى السماء فلا نجد إلا قرص الشمس يتوهج فى كبدها ويرسل أشعته حارة إلى أجسامنا فنحس بلسعها رغم ما تكدس عليها من ثوب ومعطف صوفيين، وبعد حوار قصير بيننا وجدنا أن من الأفضل أن ينطلق كل واحد من أربعتنا إلى جهة من الجهات الأربع على أن يبقى السائق مع السيارة للمحافظة عليها من ناحية ولادخار ما تبقى من وقودها حتى لا ينفد فتنقطع بنا السبل وقد نهلك لا سمح الله.

– وقد اتفقنا على أن مَنْ يلقى بدوياً في خِبائه فى أكناف هذه الصحراء الشاسعة أن يطلب منه العون بإرشادنا إلى الطريق الصحيح الذى اختلط وتداخل مع عشرات من الطرق والمسالك، وإننى لأتذكر فى هذه اللحظات بعد إحدى وأربعين سنة على هذه الحادثة هول الموقف الذى مرَّ بى فى حياتى حين أوغلت فى الصحراء وحيداً لا رفيق معى ولا زاد ولا ماء أمشى على مَهَل ثم أقف أجيل الطرف فيما حولى من فضاء غير متناهٍ فلا أرى إنساناً ولا طيراً ولا شجراً فأحس

---

(١) السابق ص ١٠٩.

بشعور الرعب والخوف من أن يخرج لى على حين فجأة – حيوان مفترس يأكلنى وينهى حياتى فى أحشاء بطنه، فيرتجف جسمى كله، وأظل أردد على مسامعى مقولة سيدنا يونس عليه السلام: «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

وبعد ساعة إلاربعًا من افتراقى عن الزملاء وابتعادى عن موقع السَّيارة وامتلاء نفسى بمشاعر الرهبة والتوجه إلى الله العلى الكبير أطلب منه المد والعون، إذا بى أسمع أصداء صوت خافت يتردد فى الأفق: محسن ... يا محسن، وأدركت لحظتها أن فرج الله قد حلَّ بساحتنا، فعدت أركض لا ألوي على شئ، وقد عادت إلى جسمى الخائر قواه المبعثرة فأخذت أركض فى الطريق نفسها التى سلكتها وعليها آثار أقدامى»[1].

* * *

(١) السابق ص ١١١، ١١٢.